محمد إسعاف النشاشيبي

مدرســـة أدبية

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

لو شئت أن ترى الأديب الذى يعد بحق عنواناً على «الأدب» لـكان عليك أن تسعى إلى لقاء إسعاف النشاشيبي فى مجلسه .

ولـكنه مات ، فاختفت بموته صورة فذة فريدة لن يظفر التاريخ بمثلها . وقد تجد نماذج للـكثير من أدبائنا البارزين ، وصوراً تحاكى أساليبهم وطرائقهم وفكرهم ، ولـكنك لن تعثر مع التنقيب الشديد ، على صورة تشبه إسعاف ، مع كثرة تلاميذه واحتفال مجلسه بالناس ، واطلاع القراء على الإسلام الصحيح من كتبه ، وشوقى وحافظ وغيرهما من خطبه ، ونقل الأديب مما كان يتابع نشره فى الرسالة .

ذلك لأنه أعلى من المحاكاة ، وأسمى من التقليد .

ومع ذلك فهو الأديب الذى كلما تمثلته تمثلت الأدب فى الجاهلية وصدر الإسلام كيف كان ، وكيف ينبغى أن يكون . فقد قيل « إن الأدب أن تجمع من كل شىء بطرف » وكان هذا شأن إسعاف النشاشيبي : يحدثك فى الفقه والشريعة ، وآراء المعتزلة وعلماء الـكلام ، ونظريات الفلاسفة والحـكماء ، وطرائف الـكتاب ونوادر الشـعراء ، مع امتلاك ناصية العربية وهى كما تعلم من أوسع اللغات ، وإلمام بالأدب والعلم والفلسفة فى أوربا الحديثة إلماماً يدل على طول الباع وعظيم المنزلة .

فإن قلت : عندنا كثير من الأدباء يجمعون بين هذه المعارف ، ويأخذون من كل شىء بطرف .

قلتُ : ولـكنك لم تحظ بالاستماع إلى إسعاف ، فهو فى مجلسه وحديثه غيره فى كتبه ومقالاته . والفرق بين هذا وذاك هو الفرق بين المقروء والمسموع ، بين اللفظة وهى على الورق جثة هامدة ، والعبارة توقد خرجت من فم تمثل بالحياة ، وتنفذ إلى القلوب ، وتستقر فى الأسماع .

وهل كان الأدب فى القديم إلا مجالس وأسواقاً ؟ .

وهو يفسد حين يؤخذ من الـكتب ويحفظه المتأدبون كما تفعل البيغاء .

يُروى أن أفلاطون لم يدوّن دروسه فى الأكاديمية ، لأن العلم عنده لا يكون إلا سماعاً أو حواراً .

عرفت إسعافاً منذ بضع سنين فى مجلسه بالـكونتنتال ، فـكان حلقة تضم صفوة الأدباء والشعراء وهو فيهم درة العقد ، أو كأنه الشمس تحف به الـكواكب .

فإذا جاء ذكر محمد عليه السلام ، قال إسعاف : الله أكبر نبى الإسلام .

كان يتغنى بهذا الدين ، ويترنم باسم الرسول .

وفى ذلك ألف كتابه « الإسـلام الصحيح » . نفدت طبعته ، وكان يفكر فى إعادتها بعد إضافة شواهد وتعليقات جديدة من ضخامة مرجع . ولا يهولنك هـذا الرقم ، فهو حقاً عظيم الإحاطة واسع الاطلاع .

أراد أن يهدى إلى هذا الـكتاب ، ولـكنه لم يكن يملك منه نسخة واحدة . وسميت أن أجد منه نسخة فلم أعثر . وسمع الأستاذ عادل زعيتر بطلبى فقال عندى نسختان فأرسل يطلب من فلسطين واحدة هى الآن فى حوزتى . تقرأ فى استهلال الـكتاب « الإسلام هو الدين الحق [ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه] ومحمد خير الخلق . وهذا الـكتاب ، وهذا الأثر ، وهذا تاريخ البشر ... فاقرأ كتاب كل دين ، وانظر أثر كل عظيم ، وفتش صحف التاريخ . واحكم إن كنتَ من الحاكين » .

هذا شعر منثور .

وهذا كلام لا يجرى به القلم أو ينطق به اللسـان ، بل هو صدى القلب ، وقبس من نور اليقين .

ما كنت تسمع فى مجلسه إلا اعتزازاً بالمروءة ودفاعاً عن الإســـلام الصحيح . فهو حلقة أو مدرسة سرت روحه فى شباب الجيل .

طيب الله ثراه ، وأدخله فسيح الجنات .

أحمد فؤاد الأهوانى